في المغرب العربي.. نهضةٌ أيقظتها صدمة الاستعمار

نادية اللمكية

إنّ كل محاولة لتغيير الواقع يجب أن تولد من رحم الوعي السياسي والإدراك الحضاري، هكذا يمكن تصوّر تلك المرحلة المهمة من التاريخ العربي التي أنجبت - بعد مخاض الاستعمار- تيارات وأحزابًا كانت هي المحطة لانطلاق الحضور العربي ورفض المستعمر الأجنبي. وبالحديث عن تلك التيارات في المغرب العربي يطالعنا أبو القاسم سعد الله – الباحث والمؤرخ الجزائري- في مقاله الموسوم بـ "تيارات الإصلاح في المغرب العربي" بمراجعة تاريخيّة للمراحل التي سبقت تشكّل تيارات الإصلاح في تونس والجزائر وليبيا والمغرب، وعوامل ظهورها، وأبرز شخصياتها وأهمّ أعمالها، مستندًا في كل ذلك على ما يمنحه له التاريخ من أحداث.

ولهذا وجب معالجة مقال أبو القاسم من محاوره الرئيسة الثلاثة، الأول: البعد الزمني والتاريخي المرتبط بالأحداث التي استند الكاتب إلى نتائجها، والثاني: مفهوم اليقظة والنهضة وارتباطه بتيارات الإصلاح وهي موضوع الدراسة، والثالث: العوامل التي أسهمت في ظهور تيارات الإصلاح في المغرب العربي.

فتاريخيًا؛ يتحدث المقال عن حقبة القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، وقبل الحديث عن ما عرضه أبو القاسم من أحداث وجب أولاً تحديد ميزان القوى في ذلك الوقت؛ فالدولة العثمانية – وهي الخليفة الشرعي آنذاك- كانت تشرف سياسيًا على المنطقة العربية حتى المغرب الأقصى، كما كانت تتبعها هضبة الأناضول ومنطقة البلقان وأجزاء أخرى. وقد أمسكت الدولة العثمانية- طوال حكمها- بالحبل من أوسطه؛ فقد ألبست نفسها لباس الشرعية، وأحاط بسلاطينها العلماء والفقهاء، ظلّوا يسكبون عليها من كأس التعظيم في ظلّ هيمنة الأيديولوجية الدينية على المجتمعات الإسلامية عامّة، والعربية على وجه الخصوص، وبهذا كان مفهوم الوطنية القومية أقرب ما يكون مغيّبًا مع وجود دعوة «عالمية الإسلام»، و«شرعية الخليفة» التي كانت تبنّاها الدولة العثمانية. غيرَ أنّ الأيامَ دول؛ فقد عانت الخلافة في هذه المرحلة من أزمات اقتصادية كبيرة، ما جعل الإطاحة بسلطانها وشيكًا مطلع القرن العشرين على يد جماعة الاتحاد والترقي، ثم سقوط خلافتها مع انتهاء الحرب العالمية الأولى.

وعلى الضفة الغربية، فقد كان ميزان القوى يرجح لصالح بريطانيا وفرنسا وإيطاليا شمالا، وألمانيا وروسيا شرقًا، والولايات المتحدة غربًا، ومع ما تملكه هذه القوى من مقومات عسكرية واقتصادية فقد كان لها تأثيرٌ مباشر على استقرار الحياة في شمال أفريقيا.

يأخذنا أبو القاسم إذن في رحلة سردٍ لوقائع تدخّل القوى الغربية في منطقة شمال أفريقيا في نهاية الحكم العثماني، وقد لا يختلف الكاتب مع كثيرٍ من المؤرخين الذين يختصرون مرحلة الاستعمار في جعل الآخر غاصبًا للموارد ومحتلا للوطن ومدمّرًا للهوية، متجاوزين كل تلك العوامل التي فتحت الباب على مصراعيه أمامه، بدءًا من سياسة الحكم وسياسة الإشراف العثماني عليها، وانتهاءً بالمواطن المغيّب سياسيًا وثقافيًا آنذاك.

لقد كان أبو القاسم – وهو الباحث والمؤرخ- أشبه ما يكون بعيدًا عن جعل الأحداث في موضع النقاش، واكتفى بجعلها حقائق تاريخية أفضت إلى نتائج يعتقد أنها أسهمت في ظهور تيارات الإصلاح في المغرب العربي! ومهما يكن من أمر فنص المقالة لم يخلُ من استنتاجات يلتقي فيها الكاتب مع آراء الباحثين لعلَّ أهمها كونُ الاحتلال "الصدمة التي أيقظت تلك الشعوب لتكتشف هويتها ومصيرها".

وفي الوقت الذي تتابع فيه الوقائع وتتسلسل الأحداث يقفز بنا الكاتب فجأة إلى سؤال ظنّ أن الإجابة عليه مدخل للحديث عن حركة الإصلاح: "ما اليقظة؟ وما الإصلاح؟" والعجيب أن نجده يجيب بالتفريق بين مفهومي اليقظة والنهضة، وكأنّه ينفي هذا الفرق ويؤكده في آن واحد بخلطه بين السؤال والإجابة! إذن فالفرق - كما يجيب أبو القاسم بتحرّز- يكمن في كون النهضة "تتجاوز مجرد الشعور إلى العمل" واليقظة في مفهومه "مجرّد فتح العينين والتعرف على الأشياء من حولنا"، فهذا الأخير أقرب إذن إلى معناها اللغوي المأخوذ من الفعل استيقظ، أي؛ صحا بعد سبات، وهو خلاف النوم. وهو ما يرى الكاتب أنّه المصطلح الأكثر دقة الذي يجب أن نطلقه على هذه المرحلة. وأجدني هنا مضطرة – بالنيابة عن الكاتب- إلى تعريف مفهوم الإصلاح الذي تجاوزه سهوًا، إذ تطالعنا معاجم اللغة بثلاثة معان رئيسة: تقويم، تغيير، تحسين. ويعرّفه هانتجنتون –أستاذ العلوم السياسية- بأنّه "تغيير القيم وأنماط السلوك التقليدية، وتوسيع نطاق الولاء ليصل إلى الأمة، وعقلنة الحياة العامة، وعقلنة البنى في السلطة، وتعزيز التنظيمات المتخصصة، واعتماد مقاييس الكفاءة". فإذا كان الإصلاح يحمل مفهوم التغيير والتحسين والتقويم فهو أقرب إلى النهضة عنه إلى اليقظة، وقد بدا أن الكاتب صعُب عليه تقسيم المراحل بهذه الدقة، فنراه يقول: "وربما كانت تونس أقرب إلى مرحلة اليقظة المبكرة؛ نظرًا لسبقها في التغيير» فها هو يربط اليقظة بالتغيير بعدما أن عرفها بأنّها الصحوة بواقع الحال لا البدء بتغييره!.

لقد ربط أبو القاسم في مقاله بين الإصلاح والاستعمار بجعل الأخير صدمة أفضت إلى الأول، وهنا وجب الوقوف والتفريق بين أمرين مهمين: هل كان الكاتب يرى الاستعمار في جوهره خطوة لتغيير السياسة والاقتصاد والتعليم؟ بمعنى آخر: هل دخول الفرنسيين إلى الجزائر وتونس والمغرب، ودخول الإيطاليين إلى ليبيا ثم تنظيمهم للحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية وبناؤهم المدارس هو ما أيقظ المغرب العربي من مرحلة الانغلاق والتأخر؟ أم أنّ ما أراد أن يثبته الكاتب هو ردة الفعل لا الفعل نفسه؟ يقظة الشباب ووقوفهم ضد الاستعمار بالوسائل المختلفة هو خطوة الإصلاح الأولى وليس الإصلاح الذي أنتجه الاستعمار؟

الحقيقة أنّ اختيار أحد الرأيين لن يكونَ منصفًا، ولئن كان الكاتب لا يستطيع الاعتراف بهذا صراحةً فإنّ التاريخ يعود ليثبت ذلك؛ فالشباب الذين شكلوا كثيرًا من الأحزاب والجماعات والثورات ضد الاحتلال الفرنسي والإيطالي هم من خريجي المدارس الفرنسية، وبعضهم فرّ من الاحتلال ليعيش في دُولِه الأم؛ ففي فرنسا وبريطانيا تشكلت الجمعيات الرافضة للاستعمار، لتولَدَ الثورات من رحم تلك الدول نفسها!

وبالمقابل فإنّ ردة الفعل التي تمثلت في "النهضة الدينية الجديدة" التي قادها جُملة من التنويريين من خريجي جامع الزيتونة والمدرسة الصادقية في تونس، وأصحاب الطرق الصوفية في الجزائر، وخريجي جامع القرويين في المغرب، والحركة السنوسية في ليبيا، هذه النهضة ترتّب عليها نشاط صحفي، ونوادٍ وجمعيات كانت حجر الزاوية في حركة اليقظة ثم الإصلاح.

وختامًا فقد سار المغرب العربي في حركته الإصلاحية إذن على خطّين رئيسين؛ الأول: النهضة الدينية الجديدة - كما أشرنا إليها - والتي تأثّرت بأفكار الجامعة الإسلامية، والثاني: المقاومة السياسية المباشرة، والتي تمثّلت في ظهور الجمعيات وتشكّل الأحزاب، وقادها في المجمل النخبة من خريجي المدارس الفرنسية. ونودّ هنا الإشارة إلى مسألة أكّدها الكاتب في ضوء حديثه عن العوامل التي أسهمت في ظهور حركات الإصلاح في الجزائر على وجه الخصوص؛ إذ يرى أبو القاسم في تقارب وجهات النظر بين العلماء المحافظين، العاملين منهم في سلك الإدارة الفرنسية والمستقلين، مع وجهات نظر النخبة من خريجي المدارس الفرنسية، يرى في تقاربها عاملا أساسا في التلاقي والتكاتف وتنسيق الجهود، فهل تحقق ذلك التقارب حقًّا؟ يقول الباحث الطيب آيت حمودة : «الميزة التي رافقت الحركة الوطنية في الجزائر هي بروز اتجاهين متنافرين؛ اتجاه إصلاحي إسلامي قومي، وآخر علماني فرنكوفوني، يوحدهم الأصل والوطن الجزائري، وتشتتهم اللغة والثقافة". فالتياران إذن لم يكونا على وفاق عوضًا عن تنسيق الجهود وتكاتف الأيدي؛ بل كان التوحّد الذي أشار أبو القاسم إليه بين صفوف الاتجاه نفسه.

nkha008@gmail.com